**- قضية (اللفظ والمعنى) :**

 ذهب عبد القاهر إلى أن الجمال في العبارة؛ إنما يعود إلى حسن إداء الكلمات لمعانيها فقوله: " أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه واتم له، واحرى بأن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية" (2)، وهو لا يرى فضلا (للفظة) إلا إذا وضعت إلى جوار أختها، واختيرت بدقة ، بحيث تؤدي المعنى المطلوب وهذا لا يتأتى لكل إنسان.أي أنه ينظر إلى اللفظ من علائقه مع الألفاظ الأخرى، وهذا واضح؛ لكونه متأتيا من نظرية (النظم) عنده، بوصفها اسلوبا جامعا للبلاغة والفصاحة معا .

 وبهذا يرد على من قال بشرف (اللفظ )من حيث هو لفظ في حد ذاته فيقول: " من نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعتة وذلك مظنة الأستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين"(3)، واعتراف الجرجاني ببعض المزايا (للفظ) في حصول البلاغة لا يمكن جعله أساس الحكم، إذ يقول: " واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز وإنما الذي ننكره ونفيل رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزا به وحده ويجعله الأصل والعمدة"(4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) دلائل الإعجاز : 7

(2) م . ن : 43.

(3) أسرار البلاغة : 1/ 100.

(4) دلائل الإعجاز : 522.

وجاء في نص آخر: " وأما رجوع الإستحسان إلى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودواعيه، فلا يكاد يعدو نمطا واحدا هو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استمالهم ويتداولونه في زمانهم ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا "(1).

 والمزية ليست للألفاظ منفردة، فلو كانت كذلك لكان بعض الكلمات أما أن يحسن أبدا، واما أن لا يحسن أبدا وقوله: " لو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلفت بها الحال ولكانت أما أن تحسن أبدا أولا تحسن أبدا"(2)، ولو كانت المزية في ذات اللفظة منفردة ،لم يكن هناك قول افضل من قول، وهو يرى أن الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيد بها الكلام غرضا من أغراضه . والذي نلحظه أن عبد القاهر في خطابه هذا يتفق مع رأي العسكري(3)، بأن اللفظ وحده لا قيمة له، إلا أن يكون جزءا من الكلام، هذا فيما يتعلق بالألفاظ مفردة وما تحويه من دلالة .

 أما ما يتعلق بنظم الكلم فان الأمر فيه يختلف لأن ناظمها إنما يقتفي " آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني فـي النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق " (4)، يظهر في هذا النص أثر خطاب ابي هلال العسكري الذي تحدث فيه عن: "حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك "(5)، أشارفيه إلى ان الشاعر إذا أراد " أن يصنع كلاما فأخطر معانيه ببالك، وتنوق له كرائم اللفظ"(6). فاختيار الألفاظ وترتيبها وابرازها في شكل معين،ونسق خاص إنما يكون بحسب المعنى الذي يروم المبدع إظهاره، ومن هنا كانت الألفاظ تبعا " للمعنى في النظم، وان الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس "(7)، وهو بخطابه يؤيد العسكري في رأيه(8).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) أسرار البلاغة : (المقدمة) .

(2) دلائل الإعجاز : 48.

(3) ينظر : كتاب الصناعتين : 130.

(4) دلائل الإعجاز : 49.

(5) كتاب الصناعتين : 127- 128.

 (6) م . ن : 123.

(7) دلائل الإعجاز : 56.

(8) ينظر : كتاب الصناعتين : 128 – 129.

آخذين بنظر الأعتبار أن كلا منهما يوجه الكلام بحسب ما يراه ؛ فالأتفاق في الرؤية قد يؤدي إلى اختلاف في التعبير عنها ، لأن كلا منهما يوجهها الوجه التي يراها مناسبة لما يسمى علاقة اللفظ بالمعنى .

 وفيما يتعلق بنظرة عبد القاهر إلى المعاني فاني ألحظ انه يقسم المعاني من حيث دلالتها على ضربين : " ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده… وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل "(1) .

**والضرب الأول** : هو الكلام الذي يصل إليه المتلقي مباشرة، أي انه ظاهر الدلالة والكلام فيه على سبيل الحقيقة ، وهو ما عبر عنه الجرجاني " بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ "(2).

**أما الضرب الثاني** : فيقصد به الكلام الذي لا يصل إليه المتلقي مباشرة ، وإنما يفضي به المعنى الظاهر إلى معنى ثان على سبيل الاستدلال ، وهو ما أطلق عليه الجرجاني (معنى المعنى)، وبها تتحقق " شعرية" النص بلغته المجازية، وهو هدف الكاتب، والشاعرمعا.

 ومن الجدير بالذكر أن عبد القاهر الجرجاني لم يرض عن رأي من نصر (المعاني) في عمومه ليحكم بالجودة أو الردائة على العمل الأدبي بحسب معناه مغفلين أمر الصياغة، لذا نجده يقول: " وأعلم ان الداء الدوي والذي أعيى أمره في هذا الباب غلط مَنْ قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلاّ ما فضل عن المعنى: يقول ما في اللفظ لولا المعنى، وهل الكلام إلاّ بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب، ومعنى نادر، فان مال إلى اللفظ شيئا ورأى أن ينحله بعض الفضيلة لم يعرف غير الاستعارة، ثم لا ينظر في حال تلك الاستعارة: أحسنت بمجرد كونها استعارة أم من أجل فرق ووجه أم للأمرين، لا يحفل بهذا وشبهه قد قنع بظواهر الأمور …."(3)، فكلاهما- اللفظ والمعنى- في مستوى خام ليس من حق (طورهما الأول) هذا أن ينال حظاً من مزية، فإذا انتفى عن الألفاظ كل مزية فكيف يمكن الإقرار بمثل ذلك للأغراض، وأصول المعاني؟ إنما هي مادة قابلـة للتشكيـل، ويتحـدد لهـا الفضل والحسن طبـق الشكل الذي تتلبسه، والصورة التي تداخلها؛

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) دلائل الإعجاز : 262.

(2) م . ن : 263.

(3) م . ن : 251- 252.

ذلك أنهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه من حيث جهلوا أن المعنى إذا كان أدباً وحكمة وكان غريباً نادراً فهو أشرف مما ليس كذلك، بل عابوه من حيث كان من حكم من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص أن لا يعتبر في قضيته تلك إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس وترجع إلى حقيقته وأن لا ينظر فيها إلى جنس آخر وإن كان من الأول بسبيل أو متصلاً به اتصالاً ما لا ينفك منه(1). وهو لم يقف عند الألفاظ وحدها أو المعاني وحدها وإنما ربط بينهما ربطا وثيقا " فقد اتضح اتضاحا لايدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"(2).

 اهتم عبد القاهر بالتصوير الأدبي اهتماما كبيرا، وهو لم يقف عند الألفاظ وحدها أو المعاني وحدها، وإنما ربط بينهما ربطا وثيقا، وبذلك يدخل الجرجاني عنصرا ثالثا في النقد الأدبي وهو مراعاة الصورة الأدبية التي تحدث من اجتماع اللفظ والمعنى، وهو بهذا يدرك بفكره الثاقب صعوبة تقسيم العمل الادبي الى لفظ ومعنى، أو صورة وفكرة. من كل هذه القيم صاغ عبد القاهر الجرجاني فلسفته البلاغية التي جعل محورها نظريته في (النظم )، والتي ربط فيها بين (اللفظ والمعنى)، ثم بين دلالات الإسلوبية، ودلالاتها الثانوية، ثم بين معنى الألفاظ الأولى في التأليف، وبين ما تؤدي إليه من معنى ثان في المجاز، وجعل النظم وحده مظهر البلاغة، ومثار القيمة الجمالية في النص الأدبي . والذي يتضح لنا إن ما صاغه عبد القاهر في خطابه من قيم أسست لنظريته (النظم)التي تحسب له بالسبق؛ يظهر فيها تأثير أبوهلال العسكري الواضح وبالأخص في النص الذي أوضح فيه حُسن الرصف(3)، التي يمكن عدّها واحدة من الأسس التي بنى عليها عبد القاهر نظريته في نظم الكلام .

 وبذلك نجد مهاد نظريتة تعود إلى جهود أبي هلال العسكري التي لم تخل من معطيات تتعلق بالتأليف والنظم، فقد تواتر فيه استعمال مصطلحات التأليف، والتركيب، والرصف، والصوغ، والسبك، والنظم، والمبنى وما شابه ذلك(4).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) تنظر : دلائل الإعجاز : 254.

(2) م . ن : 46.

(3) ينظر : كتاب الصناعتين : 147.

(4) ينظر: م . ن : 7 ، 61، 63، 64، 147، 167، 177.

وطبيعة التأليف ترتبط بأجناس الكلام وجميعها في رأي العسكري يحتاج إلى حسن التأليف الذي يزيد المعنى وضوحا وشرفا، أما سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب فإنها تؤدي إلى التعمية(1)، والتأكيد هنا على أن الاسلوب لا ينفصل عن (النظم)؛ لأن وضع الألفاظ في موضعها الصحيحة من شأنه أن يحقق المعنى الشعري أو النثري المؤثر في نفس سامعه، فالأهمية تكمن في دلالة اللفظ وإدائه لمعناه، ولا شيء فيها للفظ بذاته أي من حيث هي (حروف)و(أصوات)، وتحدد قيمة اللفظ أو قيمة معناه بمقدار ما يوحي به من المعنى، ويحدد هذه القيمة، ويزيد في استحسانها واستهجانها عند المتلقي، معرض سياقها الذي يتكشف بانضمام اللفظ إلى اللفظ؛ لأن " المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقي، والنبطي، والزنجي، وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ، ووصفها، وتأليفها، ونظمها" (2) .

 أخلص من ذلك أن النص الأدبي في رأي العسكري (صياغة، وتشكيل) قبل أن يكون موقفا، فالقيم الجمالية التي ينطوي عليها، لا تتحقق فقط بمضامينه، بل من طريقة تشكيلها بألفاظ مناسبة، وهذا ما وضعه الجرجاني في منحى نظري أشد وضوحا، وذهب به مذهبا منظما تؤدي أوائله إلى أواخره على نحو منهجي جديد، هو ما عرفناه عنده ﺑ(النظم).من دون أن نتطرق إلى أوجه الخلاف، والإختلاف بينهما في غايات النظم ومراميه. وهذا موضوع آخر لا يدخل في هدف هذا البحث.

 أحتفى عبد القاهر الجرجاني ﺑ(زيادة المعنى ) أيما اهتمام ، واتخذ منه معيارا للمفاضلة بين كلام وكلام في كثير من المواضع . منها ما جاء اثناء بيانه لدقائق التشبيه المركب ، قال :" إن قوله :

 **دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب أدقها وضم الشاكــــل**

لا يكون كقوله :

  **إني رأيتك في نومي تعانقني كما تعانق لام الكاتب الألفا**

فإن هذا قد أدى إليك شكلا مخصوصا لا يتصور في كل واحد من المذكورين على الأنفراد بوجه،

وصورة لا تكون مع التفريق، وأما المتنبي فأراك الشيئين في مكان واحد، وشدد في القرب بينهما، وذاك أنه لم يعرض لهيئة العناق ومخالفتها صورة الافتراق، وإنما عمد إلى المبالغة في فـرط النـحول ... والاول لم يعـن بحديـث الدقـة والنحول وإنـما عني بأمر الهيئة التي تحصل في

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينظر: كتاب الصناعتين : 138، 147.

(2) م . ن : 177.

 العناق خاصة من انعطاف أحد الشكلين على صاحبه ... وأجاد وأصاب البه أحسن إصابة؛ لأن خطي الام والألف في (لا) ترى رأسيهما في جهتين وتراهما وقد تماسا من الوسط ... ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ، ولكن من جهة أخرى، وهي الأغراق في الوصف بالنحول ،وجمع لك للخليلين معا ، ثم اصابة مثال له من الخط " (1)، ويتضح من هذه المقارنة مقدار ما في البيتين من زيادة في المعنى، لذلك فضل البيت الثاني على الأول لما في الثاني من استقصاء للمعنى والوصف ليس في الأول؛ لذلك يعمد الجرجاني على ترسيخ مقياس (زيادة المعنى )، وبيان ما له من أهمية جمالية في كثير من أساليب الأداء .

 ولا يخفى ما في هذا الخطاب من صدى لجهود أبي هلال العسكري في هذا المضمار إذ أولى زيادة المعنى اهتماما خاصا، وعبر عنه ﺑ (الغلو) وهو " تجاوز حد المعنى والإرتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها " (2)، وهذه الزيادة، نشطت نشاطا منقطع النظير في العصرين الأموي والعباسي، ويخبرنا العسكري بأن الممدوحين كانوا يطالبون الأدباء بذلك، والشعراء كانوا يتنافسون على ذلك، ويطبقون معيار (زيادة المعنى ) نصا وروحا(3)، ومن هذا نستنتج أن ما ورد عند أبي هلال العسكري كان واسطة لمن أتى بعده ، بوصفه ناقلا لكثير من آرائهم.

 يؤسس عبد القاهر الجرجاني بهذه المزية (زيادة المعنى) رأيا مفاده انكار أن يكون الكلام الأدبي أدبيا حتى يشتمل على مزية فنية أو نكتة بلاغية، يتعدى بها مستوى إيصال المعنى إلى مستوى الحسن البلاغي، وهذا التجاوز على مستويات متفاوتة، ودرجات ونسب مختلفة، على أساسها يمكن تفضيل كلام على آخر، وذلك بما يمتلكه كل كلام من مزايا وخصائص، من حيث الكم والكيف (4).

 ويصعب في هذا المقام الألمام بجميع المواضع التي نبه فيها عبد القاهر الجرجاني على ضرورة رعاية زيادة المعنى، وما لها من مزية بلاغية، لكن - في ضوء ما تقدم - نشيرإلى عبد القاهر أسس لمقياس (زيادة المعنى) في عمله، وإجلاء ما له من قيمة جمالية في أساليب الأداء .

 وفـي (زيادة المعنى) طـرق عديدة، تتـأتى بأساليب مختلفـة، تـلك الطرق، والأساليب التي تكسب

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) اسرار البلاغة : 175- 176.

(2) كتاب الصناعتين : 224.

(3)ينظر : ديوان المعاني : 1/ 25- 27.

(4) تنظر : دلائل الإعجاز : 7.

 الكلام عمقا، واستقصاء للمعنى المراد، منها: ( التشبيه، الإستعارة، الكناية، التتمييم ،الحشو، تأكيد المدح بما يشبه الذم، سماه العسكري (الاستثناء)، التخييل أسماه العسكري (حسن التعليل) ...)،وهذه الطرق وأساليبها تمد الأديب سعة في الأختيار منها في كل مقام ما يتناسب مع الغرض، وما يقدم لكلامه بعدا جماليا، ويكسبه صفة التأثير في القارئ؛ لذلك وقف العسكري على عدد منها؛ لكونها من أهم السمات لفن الأدب، سار النقاد بعده على إثره في رعايتها والتنبيه على أهميتها، والسعي إلى مراعاتها، وتوضيح طرقها وأساليبها .

 وبهذ كانت مداخل أبي هلال العسكري في هذه القضية - اللفظ والمعنى – مهادا لمن جاءوا بعده؛ ليضيفوا إليه ما يرونه مناسبا . والذي نجده أن النص الأدبي المؤلف من ( اللفظ والمعنى ) لا يمكن الفصل بينهما؛ لأنهما يولدان معا، فالشكل لا ينفصل عن المظمون؛ لأن فهمه ﻛ (أصوات، و مفردات، ونظم الجمل) يقودنا إلى فهم المضمون (المعاني الجزئية، والمعاني العامة)، لكن المعنى الأدبي المتأتي من التخييل يظل أوسع من الألفاظ المحدودة الدالة عليه .